

المولود

رأيت «آدم» لأول مرة ولم يسمحوا لي باحتضانه أو لمسه. وقفت خلف الزجاج أتشوق رائحة رأسه البعيدة، فلا أرتوي! رأيته يبكي ويصرخ. رأيته يتلوى ويتألم. رأيته ولم يتمكن هو من رؤيتي. قالوا إنه لم يستطع التنفس جيداً عند ولادته. قالوا إنه سيحتاج للبقاء في الحضانة. قالوا إنني لن أتمكن من إرضاعه في الحال.

بكيت رضيعي المحروم من حضني! بكيت مشيمتنا الغالية التي أحرقوها. بكيت جرحي النازف بين ساقَيَّ. بكيت حتى أمروني بالعودة إلى منزلي وتركه معهم. بعكس فترة حملي الناعمة، بدأ «آدم» حياته، وحيداً، بكل خشونة وألم. خذلته ولم أتمكن من تنفيذ وعدي له بالحماية والاحتواء. تركته لهم وعدت إلى منزلي بلا جنين في رحمي ولا طفل في حضني! كان هذا هو الفراغ بعينه!

حتى في وجود الدعم، تمكن مني الألم والحزن. لقد تغير نسيجي إلى الأبد. وضعت الأمومة أول علاماتها على روحي ووعيي. ها هي بذرة الخوف من الفقد وقد غرست بداخلي! تعرفت على نوع جديد من الألم، ألم لم أختبره من قبل.

مرت عليّ أربعة أيام حتى جُمعَ شملي و«آدم». في اليوم الأول، بدأت أستعد لتوديعه. في اليوم الثاني، أردت أن أموت لأستقبله على البر الآخر. في اليوم الثالث سمحوا لي أن أرضعه، لأول مرة ألمسه، لأول مرة أشم رأسه، قبّلت أول ما قبّلت كتفه الأيسر الصغير النصف عارٍ. في اليوم الرابع أخذته في حضني، خبأته بين ذراعيّ، وأخفيتّه في منزلي. أغلقت الباب علينا ولم أرد أن أفتحه مرةً أخرى أبداً.

يعيش الجنين في الرحم لمدة تسعة أشهر دون أن يدرك تعاقب الليل والنهار. لا يشم أو يتذوق أو يرى. يسمع ضربات قلب أمه وصوتها من بعيد. يسبح في سلام وأمان في مياحه بلا أدنى إحساس بالضوء أو الضوضاء أو الجاذبية الأرضية. في الرحم لا يشعر الطفل بالجوع أو العطش أو بالحاجة إلى الإخراج. لا يشعر بالغازات ولم يعتد على حرمة جسده أحد. هكذا كان يعيش «آدم» إلى أن بدأ حياته على كوكب الأرض في تلك الحضّانة، حيث الغرباء والألم والوخز والإضاءة العالية واللمسات الفاحصة والأصوات المزعجة.

يقول د. «وليام سيرز»، رائد مدرسة التربية بالترابط، عن مثل هذه البدايات، بأنها بدايات وعرة، أو صعبة. خلال شهور حملي، انتهيت من قراءة واستيعاب وامتصاص كلام هذا الرجل الحنون الدافئ عن الطفل ونموه وصحته والتعامل معه والمتوقع منه في أول عامين من عمره. لكن صدمة تجربة ولادة «آدم»، أفقدتني الكثير من توازني ونسيت.

بعد أول أسبوع، تحول رضيعي الملاك النائم إلى وحش كاسر على الأقل في نظري. شعرت أنه يكرهني أو يعاقبني، واستسلمت لنوبات البكاء والحزن. هل هناك طفل يبكي منذ لحظة استيقاظه حتى نومه؟ هل هناك طفل «متشنج» دائماً؟ هل هناك طفل يرضع كل عشر دقائق؟ هل هناك طفل يحتاج أن أحمله طوال الوقت بدون مبالغة؟ هل هناك طفل لا يُترك على الأرض أو السرير أكثر من دقيقتين؟ هل هناك طفل يرفض أن ينام على بطنه نهائياً؟

بعد أسبوعين، وجدت نفسي أفتح الباب وأجري برضيعي الباكي المتشنج خارج الشقة. وجدّني أهرولاً على السلم هبوطاً وصعوداً حتى انقطع نفسي ونزف جرحي مرة أخرى. اختلط بكائي ببكائه حتى توقف فجأة ونام، أما أنا فلم أتوقف عن البكاء. بسبب بكائه شبه

المتواصل، بدأ الجيران يخبطون على بابي ليطمئنوا أن كل شيء على ما يرام. هل ظنوا أنني أهمله؟ ربما ظنوا أنني أتركه يبكي على الأرض وأمضي لحالي!

هائمة على وجهي، أهرب منه معه إلى أُمِّي في الساعات الأولى من الصباح. صرخ لا يتوقف! ينظر جيرانها إليّ بتعجب ويسألون إذا كان هذا هو مصدر الإزعاج في العمارة كل يوم. لا أجيبهم! لا أحتاج أن أجيبهم! تشعر أُمِّي أن رضيعي غير سعيد على كوكب الأرض، وكأنه ولد غصبًا عنه، وكأنه لا يريد هذه الحياة.

بيد مرتعشة، وأعين دامعة، أمسكت بكتاب د. «سيرز» ووجدت صفحة «البدايات الوعرة». كيف يمكنني إعادة الزمن ومسح آثار صدمة الولادة عن هذا الرضيع المستاء من الحياة على كوكب الأرض؟ كان مطلوب مني أن أعود به إلى الحياة في رحمي، إلى الهدوء والظلام والدفء. استحممت وأزلت عني بقايا روائح العطور، لممت شعري وربطته فوق رأسي، ثم أخرجت «بؤجتي» من كيسها وفتحت فيديو على اليوتيوب لتعليم كيفية ارتدائها، لففتها حول وسطي ومن فوق كتفي وعلى ظهري ثم ربطتها. حملت «آدم» بحب ينازع النور ووضعت في «عبي».

مشيت به في المنزل، لم يتوقف البكاء. هبطت وصعدت الدرج، هداً البكاء قليلاً ثم بدأ مجدداً. نزلت الشارع ومشيت كأني لن أعود إلى بيتي أبداً، فتوقف البكاء. علمني «آدم»، كما طلبت منه حينما كان جنيماً في رحمي، كيف أجعله يتوقف عن البكاء. كان يحتاج أن يشعر بحضني وأن يستمع إلى ضربات قلبي، التي يألُفها، وكان السير بال «بؤجة» هو الحل.

بالبكاء والصرخ علمني «آدم» متى أرضعه، وفي أي وضع يجب أن أرضعه، متى ينام وكيف ينام وكيف يفضل الصمت التام أثناء النوم. تعلمت كيف أدخل الحمام لأستحم أو لأقضي حاجتي وهو معي، كيف أنام وهو بجانبني وكيف أستيقظ حينما يوقظني. تعلمت أن أكل وهو معلق في رقبتي، وأن أقص أظافري حتى تنغرس في لحمي، وأن أعتذر عن كل المناسبات العائلية التي تتعارض مع مواعيد نومه وهي عقب المغرب! يومنا يبدأ مع الشروق وينتهي عند المغرب.

مر الشهر الأول والثاني، ثم كافأني «آدم» بالابتسام في وجهي ذات صباح! بعد الرضاعة،

كانت هذه الابتسامة أول مكافأة لي على صعوبة الفترة الماضية. بانتهاء الشهر الثالث، كنا، أنا و«آدم»، قد توصلنا إلى لغة تواصل بيننا. بدأت أفهم همهمات ونبرات بكائه ونظراته وحركة يديه وفمه وجسده. لاحظته وراقبته ففهمته. تذكرت كلامي له في الرحم: «نحن، أنا وأنت، ليس لأحدنا سوى الآخر. تمسك بي جيدًا، انغرس بداخلي أكثر وأقوى، لا تتركني، سأتمسك بك، سأدافع عنك، سأحميك، لن أتركك».

قرأت فيما بعد كلام د. «مونيسيوري» عن حياة الجنين في الرحم، كيف تصله كل مشاعر الأم وكيف تصبح هذه الأحاسيس جزءًا من وعيه وشخصيته وتكوينه بعد الميلاد. لقد تشرب «آدم» مخاوفي وقلقي وتشبهي به، فوُلد طفلًا خائفًا قلقًا متشبثًا بي. أنا مصدر الأمان الوحيد له! أنا الثقة! أنا الحب! أنا شمس مجرّته دونها يظلم عالمه وينهار. بدأت أنظر للأمور من منظوره وكأنني هو، أو هكذا حاولت. تفهمت خوفه من النوم وشعرت بارتباك، كان لا يفهم هذا النوم! ماذا يحدث له فينام؟ أين كان وهو نائم؟ ماذا يحدث له عندما يستيقظ؟ تجربة النوم بالنسبة له مربة كالموت تمامًا.

علمته كيف ينام في حضني، على صدري، وكيف يستيقظ في حضني، على ابتسامتي. على الرغم من انتصاري الصغير هذا، ظل «آدم» يخاف وينهار إذا رأى شخصًا نائمًا أو عروسة مغمضة العين. ثم كبر وأدرك النوم بعد عدة أعوام من ميلاده. علمته كيف نضحك ونلعب عندما أقوم بقص أظافره. علمته كيف نستحم معًا وألا يخاف الماء. علمته كيف ينتظرن بصبر إذا دخلت الحمام وهو نائم. تعلم أن يثق بي وأن يصدقني، وكان هذا انتصارًا كبيرًا.

أصبح عمر «آدم» أربعة أشهر. في كتاب د. «سيرز» صورة لطفلة، بنفس عمر «آدم»، وهي نائمة على بطنها، وترفع جذعها لأعلى مستندةً إلى ذراعيها، في وضع من أوضاع اليوجا. «آدم» لا يفعل هذا! «آدم» لم ينقلب من جنب إلى آخر! لا يهم! كل طفل ينمو وفقًا لإيقاعه الخاص، هكذا طمأنتني الطبيبة.